الفصل الثاني

أركان الإسلام

يصف القرآن الكريم أركان الإيمان في سورة البقرة على الشكل التالي: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. (الآية 285) وفي سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾. (الآية 136).

الإيمان بالله

أسماء الله الحسنى:

يعتقد المسلمون بوجود إله واحد لا شريك له، خالق الكون وحافظه، باطنه وظاهره. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سورة ق ـ 16) وكذلك أيضاً: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ

obeikandl.com

الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام ـ 103) أو **﴿قَالَ لَن تَرَانِي...﴾** (الأعراف ـ 143).

ولا يعرف المسلمون ـ شأنهم شأن المسيحيين العرب ـ عن الله إلا ما قاله هو عن نفسه في الكتب المنزلة. ويحتوي القرآن الكريم على العديد من أسماء الله الحسنى من صفات تدل على كماله، منها الودود ومنها المنتقم.

تبدو صفات الله في علاقة جدلية مع بعضها، بل ومتناقضة ظاهرياً، هكذا فقط يمكن تفسير الحقيقة المقدسة. وقد وردت في السورة رقم 59 (الحشر) أكبر قائمة تضم أسماء الله الحسنى: **﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (الآيات 22 ـ 24) وهناك قوائم مختلفة تضم ما مجموعه 99 اسماً من أسمائه الحسنى والتي ليست جميعها أسماء قرآنية، وكذلك ليست كلها مذكورة في القرآن. هذه الأسماء الحسنى نجدها مكتوبة بخط جميل ومعلقة كقطعة تزيينية على الجدران داخل البيوت. ويُفسّر اقتصار هذه الأسماء على 99 اسماً وعدم وجود الاسم المئة، بأن كل هذه الأسماء لا تحيط بعظمته وجلاله.

وأكثر الصفات التي وردت وترددت في القرآن الكريم هي الرحمن والرحيم (والمقصود بذلك هو التعبير عن اللطف المبدئي والرحمة التي كتبها الله عن نفسه) بقوله تعالى في سورة الأنعام **﴿قُل لِّمَن مَّا فِي**

obeikandi.com

السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّه كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسه الرَّحْمَةَ.......» (الآية 12)، وكذلك: ﴿...... فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الآية54).

تبدأ كل سور القرآن الكريم ـ ماعدا السورة رقم 9 ـ (سورة التوبة) بالتسمية. أي عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم». بهذه العبارة، أو بمجرد النطق «باسم الله» يبدأ المسلم كل عمل يقوم به ، مثلاً قبل أن يتناول جرعة ماء أو وضع مفتاح سيارته في مكانه ليديرها.

ميول غنوسطية (عرفانية) :

إن مفهوم الله في الإسلام والذي اشتق من أسمائه الحسنى الواردة في القرآن الكريم لا ينسجم مع النظرة الفلسفية الأحدية (monism) سواء تعلق الأمر بالأحدية المادية (المادية ـ الوضعية ـ العلمائية) أم بالأحدية المثالية (الأفلاطونية ـ المثالية ـ العرفانية).

ومن هنا فإن غزل بعض الفلاسفة المسلمين مع أفكار الأفلاطونية الجديدة للمتصوف الغنوسطي بلوتين plotin (توفي عام 270) يدل على المحاولة (الفاشلة) لتبدل المفاهيم الأساسية ، أي الهروب من تصور الإله كما جاء في القرآن الكريم إلى تصور «ثيوصوفي» أي حكمة الله.

وماعدا ذلك يتفق المسلمون مع وجهة النظر التي تسمى باللاهوتية السلبية theologia negativa بأنه لا يمكن تحديد مفهوم الله بالطريق الإدراكي إلا سلبياً، بأنه ذلك الذي لا يمكن تصور عدم وجوده، ذلك الذي لا يمكن إلا أن يكون.

obeikandl.com

تطور أم خلق؟:

اعتقد بعض المسلمين في العصر الحاضر، مثلهم مثل كثير من المسيحيين الأصوليين، أو ما يطلق عليهم اسم «الخلقيين» بأن عليهم رفض النظرية الداروينية حول التطور البطيء للعالم، باعتبارها تناقض نظرية الخلق. وقد احتد هذا الجدال ، خاصةً وأن الداروينية لم تستطع أن تقدم البرهان على نظريتها الجوهرية حول التطور من خلال التحول. ومن جهة أخرى لم تعد هناك صعوبات لدى الجيل الذي يتعلم باستخدام الكمبيوتر أن ينظر إلى مسار عملية الخلق المعقدة والمبرمجة.

الإيمان بملائكته:

من الإيمان بوجود إله غير مادي يمكن الاستنتاج بإمكانية وجود عالم روحاني يقرِّب من إدراكنا بأن الحقيقة لا تنتهي هناك، حيث تعجز حواسنا المعرضة للاضطراب.

يعلمنا القرآن الكريم بأن هناك كائنات حية تأتمر بأمر الله. منها الملائكة، مثل: جبريل وميكائيل، وهما الملاكان الحارسان: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**....﴾ (الرعد ـ13).

وهناك ملائكة العقاب والموت. ﴿**سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**﴾ (العلق ـ18)

وكذلك الجن، أي كائنات روحانية طيبة أو شيطانية وهي بمرتبة أدنى، ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا**﴾.(الجن ـ 11) وكذلك: ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا**﴾. (الآية 14).

لقد أصبح البحث في قضية الملائكة نوعاً من الطقوس الدينية.
ومن المعلوم لدى المسلمين بأن ما من أحد آخر يستطيع أن يعرف عنهم إلا القليل، الذي يمكن استنتاجه من الكتب المنزلة، ولا يمكن الوصول إلى المعرفة المتعلقة بهذه الأمور إلا بأسلوب مجازي أو تشبيهي؛ لذلك فمن العبث الجدال حول فيما إذا كان الشيطان هو جنٌّ تمرد على الله، أو أنّه ملاكٌ شهيد، مع الافتراض بأنه لا حق للملائكة بالمعصية.
ولكن الأهم من ذلك هو أن الإسلام لا ينظر إلى الشيطان على أنه ندٌّ لله بالمفهوم المانوي [1]؛ لأنه لا سلطة له على البشر، ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ...**﴾ (إبراهيم ـ 22)، بل حاول فقط أن يلعب دوره في الخطة الإلهية المقدسة.

الإيمان برسله:

من هو النبي؟

يُفترض بالمسيحيين أن يعترفوا بكل الأنبياء اليهود الذين ورد ذكرهم في العهد القديم.

أما اليهود فلا يعترفون بالمسيح على أنه نبي موسوي أو ابن الله. ومن هنا فإن المسلمين هم الأكثر سماحة. فالقرآن ذكر 25 نبياً. من آدم إلى أيوب ونوح، مروراً بداود وسليمان وموسى حتى يوحنّا

(1) المانوية ـ ديانة فارسية أسسها ماني، وهي مزيج من الزرادشتية واليهودية والمسيحية ـ ثنائية تؤمن بوجود إلهين للخير والشر. (المترجم).

المعمدان (يحيى) والمسيح. وبذلك يعترفون أساساً بجميع الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس. وقد جاء التعبير عن ذلك في عدة آيات قرآنية كريمة منها:

﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (البقرة ـ136).

﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران ـ 84).

﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (العنكبوت ـ 46) ومن وجهة نظر إسلامية فإن الاعتراف بإنسان على أنه نبي هو غاية التقدير.

خاتم الرسل:

يرى المسلمون أن عصر النبوات قد انتهى من تاريخ الإنسانية ببعث الرسول الكريم محمد ﷺ، لأن دين إبراهيم القائم على التوحيد قد اكتمل بالقرآن الكريم الذي يصلح لكل زمان ولكل الشعوب. وقد وصف القرآن الرسول الكريم محمداً ﷺ بأنه خاتم الأنبياء. ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾. (الأحزاب ـ40).

obeikandi.com

وفي التاسع من شهر الحج عام 632 م أوحي في عرفات قرب مكة: ﴿... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**...﴾ (المائدة ـ 3).

وبالفعل لم يشهد العالم بعد ذلك ظهور نبي حقيقي، بالرغم من أن البهائي والقادياني أو المورمون يمكن أن يروا غير ذلك. على أي حال من المهم أن نعلم أنه من الوارد أن يكون هناك شخص من خارج الإسلام يدَّعي النبوة بعد محمد ﷺ، أو ينكر التنزيل الإلهي للقرآن الكريم.

يختلف الإسلام في هذه النقطة عن فرق أخرى، مثل: الدروز، وبعض الشيعة المتطرفين، وما يسمى بمذهب البهائية (مجموعة لاهور وقاديان)، كما هو الأمر في الكنائس المسيحية، مثل شهود يهوه.

هل هناك من عصمة؟

كما تنص العقيدة المسيحية على طهارة المسيح وأمه البتول مريم، يستنتج بعض المنتسبين إلى الإسلام عصمة وطهارة وجود نور محمدي من مفهوم تصورهم واعتقادهم، وقد بلغ بهم الأمر حدَّ تأليه نبيّهم. ونجد في العهد القديم مثل هذه السرديات الواضحة، عن سلوك خاطئ للأنبياء تتناقض مع هذه المبالغات.

ويشير القرآن الكريم إلى حادثة داود بشكل خاص. ﴿**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ**﴾ (ص ـ 24) وقد وُجه اللوم إلى الرسول ﷺ عدة مرات في القرآن الكريم. جاء ذلك في سور عديدة (مثل: عبس 1 ـ11 ، التوبة ـ 43، الإسراء 73ـ 75، الكهف ـ23، الأحزاب 33 ـ37).

ويميز بعض المسلمين الذين لا يميلون إلى المبالغة - ومنهم المدرسة الوهابية في المملكة العربية السعودية - بين عصمة عقيدة النبي عن الخطأ، وبين إمكانية وقوعه في الخطأ بحكم طبيعته الإنسانية.

الإيمان بكتبه

يفترض في المسلمين احترام جميع الكتب المنزلة من الله والنظر إليها كذلك. طبعاً لا يعتمد القرآن الكريم إلا على أجزاء من العهد القديم (التوراة والمزامير) وعلى العهد الجديد (الإنجيل) بشكل واضح، ويفيدنا بأن هذه الكتب ليست موثوقة في وجوه عدة.

وخلال مسيرة التاريخ الإسلامي كانت هناك دائماً وأبداً محاولات، لم يكتب لها الكثير من النجاح، لجعل الكتب الأخرى ـ البوذية ـ الهندوسية (فيدانتا) والزرادشتية ـ بمنزلة الكتب السماوية المنزلة على غرار القرآن الكريم.

عملياً سوف يتمسك المسلم بالدرجة الأولى بالقرآن الكريم ويفضله على الكتب الأخرى، خاصة أنه ليس هناك اتفاق بين اليهود والكاثوليك والبروتستانت حول ما هي مكونات العهد القديم. إن التعامل النقدي التاريخي مع تاريخ نشوء العهد الجديد قد أسهم بدوره في جعل المسلمين يوافقون بشكل متشائم؛ ولذلك يعد القرآن بالنسبة لهم أسمى وآخر مرجعية.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء ـ 10) كما أن الطبيعة هي أيضاً تجلي الله وكتاب يجب تفسير رموزه، وهذه أيضاً تسمى آيات.

واليوم يعلم المسلمون بأنهم لا يستطيعون فهم الكون دون القرآن ولا القرآن دون معارف كافية في العلوم الطبيعية. وهم يعتقدون بأن التوفيق بين الدين والعلم ممكن؛ لأنهما لا يتضاربان؛ لأن الدين فقط هو الذي يبحث عن العلة الأولى للكون. وهو فقط الذي يستطيع أن يؤسس لنظام قيم وإدراك ويقدر نوعيته.

الإيمان باليوم الآخر

البداية والنهاية:

يؤكد القرآن الكريم أن الناس عاجزون عن معرفة الآخرة: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. (النمل ـ66).

لدى المسلمين والمسيحيين ـ بفضل ما أنزل عليهم ـ تصورات متشابهة بخصوص النهايات، أي يوم القيامة.

كلاهما ينطلق من فكرة أن للكون ـ باعتباره من خلق الله ـ بداية، وبالتالي يجب أن تكون له نهاية.

obeikandi.com

opelikanadi.com

هناك اختلاف كبير بين قصة الخلق التوراتية وتلك القرآنية. والقرآن على حق بتأكيده على عدة أمور: منها أن الكون قد نشأ نتيجة الفتق الأول urknall من مادة في غاية التكثيف ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. (الأنبياء ـ30) وأنه كان في البدء على شكل غازي ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت ـ11) وأنه يتمدد باستمرار ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. (الذاريات ـ 47) وأن الحياة قد نشأت من الماء، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ....﴾ (النور ـ 45) ومن هنا كانت أولى الكائنات الحية برمائية.

ويتحدث القرآن الكريم أيضاً عن نهاية الكون بقوة ككارثة كونية. عندما تحين الساعة على حين غرّة وينفخ في الصور لليوم الآخر ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل ـ17).

هل هناك خطيئة أولى؟

ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى قد غفر لآدم وحواء بدلاً من أن يلعنهما وذريتهما ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ـ 37) و﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾. (طه ـ122).

فالاعتقاد الخطير بالخطيئة الأولى (الموروثة) التي تثقل على الإنسانية، هو باطل من وجهة نظر المسلمين، إذ يبين القرآن الكريم بوضوح أن تقويم الإنسان لا يكون إلا حسب حسناته وسيئاته، وما من أحد يتحمل مسؤولية ما قام به آخر. **﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾**. (يونس ـ41).

ومن وجهة نظر إسلامية تمثل الخطيئة الأولى (الموروثة) نظرية مضللة للقديس أوغوستينو التي طبعت مسار التاريخ المسيحي بأسلوب تراجيدي وتسبب ـ وبشكل مرعب ـ بالكثير من البؤس والشقاء.

الخطيئة والمغفرة:

مثله مثل المسيحية، يميز الإسلام أيضاً بين الصغائر والكبائر من الخطايا، **﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾** (النساء ـ 31) ويبشر الذي يندم على سيئاته وهو صادق، بغفران ربّه الرحيم **﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** (النساء ـ 110) وقد ذكر الرسول الكريم حديثاً قدسياً جاء فيه:

(يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك .....).

أما الذنب الأكبر، الذي هو الشرك بالله فلا يغفره الله أبداً: وهو أن يجعل مع الله إلهاً آخر، أو أكثر. وقد ورد ذلك في أكثر من سورة وآية مثل:

obeikandl.com

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. (النساء ـ 48) وكذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ (النساء ـ 116) و﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. (الزمر ـ65).

ويعلمنا القرآن الكريم بأن مصير الإنسان يأخذ مجراه بعد موته ـ حيث لا مجال لتصحيح هذا المسار ـ والشفاعة بالمتوفى ليست ممكنة إلا بإذن من الله تعالى كما جاء في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. (البقرة ـ255).

وبالرغم من عدم وجود «كتاب أموات» في الإسلام على غرار التيبت. نجد هناك وصفاً لما يحدث ما بين الموت ويوم البعث، منها تصور وجود مملكة متوسطة «برزخ». وبما أن الأموات هم خارج الزمان والمكان فإنهم جميعاً ـ طالما هم أموات ـ سيكون لهم الشعور نفسه، فور موتهم ومثولهم بين يدي الخالق، حيث يعطى كل منهم كتابه الذي سُجّلت فيه كل أفعاله.

الجنة والنار

كما في المسيحية كذلك تتضمن الرسالة القرآنية الوعد بحياة بعد الموت، كرحمة يَمُنُّ الله تعالى بها على الناس، وليس كضرورة كسبية. ويذكر القرآن الكريم، بكل تفصيل، ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت: المكافأة بالسعادة الأبدية في الجنّة. والعقاب الأبدي في جهنم؛ حيث: ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ (طه ـ 74). وقد تم مسبقاً استخلاص بعض الاستنتاجات من وصف الجنة، التي وعد الله «المؤمنين» بالحور العين والحسان، اللواتي يبقين عذراوات إلى الأبد «كأزواج». وهنا تجدر الملاحظة أن كلا التعبيرين يحتملان التذكير والتأنيث. بحيث يمكن الانطلاق من فرضية أن للنساء في الجنة الفرص نفسها من النعيم المتاح للرجال.

وكذلك فيما يتعلق بالجحيم فقد كانت هناك نقاشات ضمن الأوساط ذات التوجه الإنساني فيما إذا كان ينسجم مع رحمانية الله تعالى أن يبقى المذنبون ملعونين إلى الأبد. هل يمكن فهم عبارة «إلى الأبد» في النص القرآني على أنها «إلى أجل غير معلوم» لأن الله يغفر كل شيء لمن يريد ما عدا الشرك به؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء ـ 48) وكذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾. (الآية ـ116).

تسيير أم تخيير؟

في مسيرة تاريخ الفكر الإسلامي كانت هناك دائماً و أبداً مدارس فكرية أرادت أن تجعل من الإيمان بالقدر عقيدة لها ، وبالتالي تشجع على موقف أساسي يقوم على الجبرية. استطاع ممثلو هذا النمط من التفكير الاعتماد على عشرات الشواهد القرآنية التي يهدي بها الله تعالى من يشاء إلى الحق ويضل من يشاء ، ويبدو أن المنطق يؤيد هؤلاء: فكيف يمكن أن يملك الإنسان حرية الاختيار أمام إله يعرف كل مجريات الأمور قبل وقوعها، وبإمكانه ـ وهو القوي ـ أن يحول دون وقوعها إذا ما أراد.

جاء في القرآن الكريم أن الإنسان قد تقبل حرية التصرف التي منحها الله تعالى له: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾** (الأحزاب -72).

من هنا وجدت في تاريخ الفكر الإسلامي أيضاً دائماً مدارس فكرية تنطلق من حرية القرار عند الإنسان. يعتمد ممثلو هذه المدارس أيضاً على عشرات من الآيات القرآنية التي تقول إن الله تعالى مع من يريد، وأنه بعدالته يجزي ويعاقب كل امرئ بما يستحق. هؤلاء أيضاً يقفون إلى جانب المنطق. فكيف يعاقب الله تعالى، وهو العادل واللطيف، أحداً لا يملك حرية التصرف؟

هناك موقف جبري يتعارض بشكل خاص مع ذلك، وهو أن الله تعالى لا يغير ما بقوم طالما هم لا يغيرون ما بأنفسهم ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأنفال ـ53).

لقد فشلت كل المحاولات التي بذلها الفلاسفة المسلمون للمصالحة بين نظريات الجبر ومبدأ حرية القرار. ولم يكن تحذير الرسول ﷺ من ذلك عبثاً، من أن يمعن المرء التفكير في ذلك.

وفي نهاية المطاف اتخذ كلٌّ من هذين التيارين الفكريين موقفاً محايداً، وهو أن الكثير من المسلمين ـ بالرغم من اعترافهم بنظرية الجبرية ـ يتصرفون عملياً كمن يملك حرية الإرادة.

وهناك انطباع بأن المرء لا يتحدث في الشارع عن القدرية إلا بخصوص الأحداث التي مرت. أما فيما يخص المستقبل فيصبحون في عداد من يعتقد بحرية الاختيار. ومع أن علماء الدين والفلاسفة المسلمين لم يحلوا هذه المشكلة، فقد كان لهم فضل بأنهم لم يطمسوها كما فعلت الفلسفة الغربية[١].

---

(١) أوضح العلماء المسلمون هذه الإشكالية بكل بساطة ووضوح حيث قالوا: إن الإنسان حرٌّ مُخيّر فيما يملك، ومُسَيَّرٌ فيما لا يملك. «المراجع».